تعريف الحكاية على ألسنة الحيوان :

وهي نوع من القصص الخرافي أجراه العرب على ألسنة الحيوانات، فجعلوها تتحدث وتفعل كما يتحدث ويفعل الإنسان، وهو أمر لا أساس له من الواقع والعقل، وهي بخلاف الأسطورة – التي تكون موضع اعتقاد عند أصحابها – « لا تثير أي التباس في عدم صدقها » [1] ولهذا أطلق عليها علماء اللغة قديما : ((تكاذيب العرب أو أكاذيب الأعراب أو أحاديث العرب أو خرافات الأعراب وهو الحديث المستملح من الكذب [2]))، حتى أنَّ المبرد عقد بابا في كامله أسماه : ((من تكاذيب الأعراب))، ذكر فيه : « أبو عمر الجرمي قال: سألت أبا عبيدة عن قول الراجز:

أَهدَّموا بيتك لَا أَبا لَكَا	وأَنَا أَمْشي الدُّأْلَى [3] حوالَكَا!

فقلت: لمن هذا الشعر؟ فقال: هذا يقوله الضب للحسْل [4]، أيام كانت الأشياء تتكلم » [5]

من الشاهد السابق يظهر أنَّ العرب كانت تروي فيمَا بينها حكايات خرافية وكلاما على ألسنة الحيوان.

الملاحظ أن هذا النوع من الأدب الرمزي الأليغوري، كان منشؤه البيئات البدوية، « لأن عقلية البدو، وطبيعة حياتهم، يسمحان بنشوئه بينهم، إذ كانوا أقل وعيا وثقافة وحضارة من سكان الحضر، كما كانوا يعايشون الحيوان، ويخالطونه مخالطة شديدة، جعلتهم ينسجون حوله هذه الخرافات » [6]، ومن جهة ثانية أن الأعراب يحاكون برواياتهم هذه قصص العجم، فقد ذكر المبرد ذلك ، بقوله : « حدثني التوزي قال: سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب؟ فقال لي: إن العجم تكذب فتقول: كان رجل ثلثه من نحاسٍ، وثلثه من رصاصٍ، وثلثه من ثلج، فتعارضها العرب بهذا

---

[1] – ركان الصفدي، الفن القصصي في النثر العربي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة ، دمشق، 2011، ص33.

[2] – من جنس أكاذيبهم أيضا الكلام عن مغامراتهم مع الجن (ينظر : خبر خرافة من بني عذرة وحكاياته عن الجن الذين اختطفوه، حتى ضرب به المثل : فقالوا : حديث خرافة)، وفي بعض الأحيان، يقصد بالكذب، مخالفة الواقع في حياتهم اليومية، ويظهر هذا في مبالغاتهم ونقلهم أخبارا واضحة البطلان، منها ما ذكره أبو العباس مُحَمَّد بن يزيد المبرد، بقوله : « تكاذب أعرابيان فقال أحدهما: خرجت مرة على فرسٍ لي، فإذا بظلمة شديدة، فيممتها حتى وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه، فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها، فانجابت؛ فقال الآخر: لقد رميت ظبياً مرة بسهم فعدل الظبي يمنة، فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبي، فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبي فعلا السهم خلفه، فانحدر فانحدر عليه حتى أخذه » الكامل في اللغة والأدب، ج02، تح: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، مصر، ط03، 1997،ص 148، ينظر للاستزادة : عبد الله الغذامي، القصيدة والنص المضاد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 1994، ص 113، 151.

[3] – الدألى: مشي كمشي الذئب.

[4] – الحسل : ابن الضب.

[5] – أبَو العباس مُحَمَّد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 147.

[6] – عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط01، 1988، ص32.

وما أشبه » [1]

ومن هذه القصص ما رواه الجاحظ : « أنّ شيخا نصب للعصافير فخا، فارتبن به وبالفخ، وضربه البرد، فكلما مشى إلى الفخ وقد انضم على عصفور، فقبض عليه ودقّ جناحه، وألقاه في وعائه، دمعت عينه مما كان يصك وجهه من برد الشمال. قال: فتوامرت [2] العصافير بأمره وقلن: لا بأس عليكن، فإنه شيخ صالح رحيم رقيق الدّمعة! قال: فقال عصفور منها: لا تنظروا إلى دموع عينيه، ولكن انظروا إلى عمل يديه! » [3]

منها أيضا ما ترويه كتب الأمثال حول قصة (الأرنب والثعلب)، وفيها: « زعموا أن الأرنب وجدت تمرة فاختلسها الثعلب منها فأكلها. فانطلقت به إلى الضب يختصمان إليه. فقالت الأرنب: يا أبا الحسيل؟ فقال: سميعاً دعوت. قالت: أتيناك لنَحْتَكِم إليك فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم! قالت: إني وجدت تمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسَها الثعلب مني فأكلها. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطَمته. قال: بحقك أخذت. قالت فَلَطمني. قال: حرٌّ انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: حَدِّث الرعْناء بحديثين فإن أبَتْ فارْبَعْ. فذهب هذا كله مثلاً. ومعنى اربع: أمسكْ وكُفَّ » [4]

خصائص البنية السردية لقصص كليلة ودمنة :

إن المتتبع الدقيق لقصص كليلة ودمنة، يلحظ أن بنيته السردية تتحكم فيها خصوصيات عدة، تستحضر ضمن مستويات مختلفة وبدرجات متفاوتة. نحاول تقصي هذه الخصوصيات السردية في العناصر التالية :

1/ **الصيغة الطلبية** : البنية السردية لنص كليلة ودمنة، تتكئ على طلب داخلي، يدخل ضمن العملية السردية، فبيدبا الفيلسوف لم يؤلف « كتاب كليلة ودمنة من تلقاء نفسه، لم يؤلفه محبة في التأليف، وإنما استجابة لرغبة عبَّر عنها دبشليم ملك الهند » [5] وبهذا يكون دبشليم قد جعل نفسه متلقيا أولا ضروريا في العملية السردية ومنه تبعا جمهور المتلقين بعده، إذ لولا التلقي لما كان هناك سرد وتأليف من الأساس، هذا من جهة ومن جهة ثانية، يظهر أن دبشليم « يسمع صوته داخل الكتاب، إذ هو الذي يقترح في بداية كل فصلٍ، الموضوع الذي يجب أن يتطرق إليه بيدبا، كل فصل يصدر، يفتتح بأمر يصدر من دبشليم » [6]

الأمر نفسه يتكرر في كل بداية قصة؛ إذ يطلب دبشليم باستمرار من بيدبا أن يحكي له محدداً له إطار الحكي والعبرة منه، ففي باب: "**الأسد والثور**" على سبيل المثال يأتي الكلام: « قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف وهو رأس البراهمة،

---

[1] – أبو العباس مُحَمَّد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج02، مصدر سبق ذكره ، ص151.

[2] – توامرت : تآمرت.

[3] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج 05، تح: عبد السلام مُحَمَّد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط02، 1966، ص 238 ، 239.

[4] – المفضل بن سلمة الضبي، الفاخر في الأمثال، مصدر سبق ذكره، ص 111، 112.

[5] – عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل (دراسات في السرد العربي)، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 1999، ص33.

[6] – الصفحة نفسها.

اضرب لي مثلاً لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء » [1]، وهكذا تتكرر هذه الصيغة الطلبية عبر المسار السردي للنص، ولعل هذا الطلب جاء نتيجة حتمية لفعل الاستمالة والإغراء، الذي يمارسه بيدبا مع دبشليم، حتى يضمن منه الانتباه واليقظة والرغبة في المزيد، لأنه إذا لم يظهر المتلقي رغبة في الاستماع فلا حاجة حينئذ للسرد، لأنه يصبح بلا معنى ولا فائدة.

2/ السرد في كليلة ودمنة ذو نظام إسنادي:

الملاحظ أنَّ قصص كليلة ودمنة قد سبقت بمقدمة إسنادية، حرص على ثباتها طيلة المسار السردي للنص، وتتنوع الصيغ الإسنادية في النصوص السردية العربية القديمة، إذ نعثر على صيغة: "بلغني أيها الملك السعيد أنَّ " في "ألف ليلة وليلة"، و" حدثني عيسى بن هشام " في مقامات بديع الزمان الهمداني و" كان يا ما كان " في القصص الشعبي و"زعموا أنَّ " في "كليلة ودمنة"، فالرواة في هذه النصوص السردية ومنها كليلة ودمنة، عندما يوردون حكاياتهم، فإنهم لا يدعون أنهم أصحابها المخترعون لها، بل هم ينسبوها إلى أشخاص مجهولي العين والحال، والسؤال الذي يطرح هنا في حق صيغة ((زعموا أنَّ))، من هم أصحاب الزعم؟ أو بصيغة أخرى من اخترع الحكايات؟ والجواب : لابد أن يكون تقريبيا، إذ لا يمكن الاهتداء إليهم، ومع هذا « فإن بوسعنا أن نقول إن بعض ملامح أصحاب الزعم تفرض نفسها، فهم عاشوا قبل بيدبا، ثم هم حكماء حكوا ما حكوا قصد إفادة من سيأتي بعدهم ويطلع على أقوالهم » [2]، وسؤال آخر لماذا يحرص السرد العربي على توفر الإسناد فيه، والإجابة تكمن في أنَّ هذا التقليد إنما هو استجابة لنزوع ثقافي عربي يؤثر الصدق والواقعية، ففي "كليلة ودمنة" عندما ترد صيغة ((زعموا أنَّ)) فبيدبا يسندها إلى آخرين مجهولين (ضمير الجمع) إمعاناً في تحقيق المصداقية، لأن الخبر المتواتر المجمع على روايته يكون أقوى تأثيراً وواقعية من خبر الآحاد، هذا من جهة ومن جهة ثانية أنَّ إسناده لهذه القصص لقوم سبقوه، يفهم منه ضمنيا أنَّ أصحابها أهل ثقة وفضل، وإلا لما حكى بيدبا قصصهم للملك دبشليم، فهو رأى فيهم أنهم أهل لتروى حكاياتهم، ويستشهد بأقوالهم، فهو بهذا « يقدرهم ويرى فيهم معدن الحق والخير » [3]

3/ الغرائبية في كليلة ودمنة :

ولعل هذا هو أبرز ملمح في هذه الحكايات، التي قيلت على ألسنة الحيوانات، وهذا النزوع الغرائبي كما يظهر في السرود العربية الأخرى على غرار ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران والتوابع والزوابع، هو يؤسس لأدب عجائبي منفتح على الأمر الخارق للعادة؛ القائم أساسا على مفهوم الخيال الخلاق، هذا الأخير الذي يظهر « مخترقا حدود المعقول والمنطقي

---

[1] – عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، نقَّحه وعلق حواشيه : خليل اليازجي، المطبعة الأدبية، بيروت، لبنان، 1888، ص105.

[2] – عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل (دراسات في السرد العربي)، دار توبقال للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 1999، ص35.

[3] – الصفحة نفسها.

والتاريخي والواقعي، ومخضعا كل ما في الوجود، من الطبيعي إلى الماورائي، لقوة واحدة فقط : هي قوة الخيال المبدع المبتكر ... »[1]

نموذج لقصص كليلة ودمنة : قصة القرد والغيلم

« قال دبشليم للملك الفيلسوف: اضرب لي مثلاً الرجل الذي يطلب الحاجة، فإذا ظفر بها أضاعها قال الفيلسوف: إن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها، ومن ظفر بحاجة ثم لم يحسن القيام بها أصابه ما أصاب الغيلم، قال الملك: وكيف ذلك؟ قال بيدبا: زعموا أن قردا يقال له: ماهر، كان ملك القردة، وكان قد كبر وهرم، فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة، فتغلب عليه، وأخذ مكانه فخرج هاربا على وجهه؛ حتى انتهى إلى الساحل فوجد شجرة من شجر التين فارتقى إليها، وجعلها مقامه.

فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، إذ سقطت من يده تينة في الماء، فسمع لها صوتا وإيقاعا، فجعل يأكل ويرمي في الماء فأطربه ذلك، فأكثر من طرح التين في الماء، وثم غيلم كلما وقعت تينة أكلها، فلما كثر ذلك ظن أن القرد إنما يفعل ذلك لأجله، فرغب في مصادقته وأنس إليه وكلمه، وألف كل واحد منهما صاحبه، وطالت غيبة الغيلم عن زوجته فجزعت عليه، وشكت ذلك إلى جارة لها، وقالت: قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله، فقالت لها: إن زوجك بالساحل قد ألف قردا وألفه القرد، فهو مؤاكله ومشاربه، وهو الذي قطعه عنك، ولا يقدر أن يقيم عندك؛ حتى تحتالي لهلاك القرد، قالت: وكيف أصنع؟ قالت لها جارتها: إذا وصل إليك فتمارضي، فإذا سألك عن حالك، فقولي: إن الحكماء وصفوا لي قلب قرد.

ثم إن الغيلم انطلق بعد مدة إلى منزله، فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة، فقال لها الغيلم: ما لي أراك هكذا؟ فأجابته جارتها وقالت: إن زوجتك مريضة مسكينة، وقد وصف لها الأطباء قلب قرد، وليس لها دواء سواه، قال الغيلم: هذا أمر عسير، من أين لنا قلب القرد ونحن في الماء؟ لكن سأحتال لصديقي، ثم انطلق إلى ساحل البحر، فقال له القرد: يا أخي، ما حبسك عني؟ قال الغيلم: ما حبسني إلا حيائي، فلم أعرف كيف أجازيك على إحسانك لي، وأريد أن تتم إحسانك إليَّ بزيارتك إياي في منزلي، فإني ساكن في جزيرة طيبة الفاكهة، فركب ظهر الغيلم فسبح به؛ حتى إذا سبح به عرض له قبح ما أضمر في نفسه من الغدر، فنكس رأسه، فقال له القرد: ما لي أراك مهتمًّا؟ قال الغيلم: إنما همي؛ لأني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض؛ ولذلك يمنعني من كثير ما أريد أن أبلغه من حرصي على كرامتك وملاطفتك، قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتك يكفيك مؤونة التكليف، قال الغيلم: أجل.

ومضى بالقرد ساعة، ثم توقف به ثانية فساء ظن القرد، وقال في نفسه: ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر، ولست آمنا أن يكون قلبه قد تغير لي، وحال عن مودتي فأراد بي سوءا، فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلبا من القلب، وقد يقال: ينبغي للعاقل ألا يغفل عن التماس ما في نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه عند كل أمر وفي كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود، وعلى كل حال فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب. قالت العلماء: إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة، فليأخذ بالحزم من الحفظ منه، وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته، فإن كان ما يظن حقًّا ظفر بالسلامة وإن كان باطلاً ظفر بالحزم، ولم يضره ذلك.

ثم قال للغيلم: ما الذي يحبسك؟ أي: ما الذي يوقفك، وما لي أراك مهتمًّا كأنك تحدث نفسك مرة أخرى؟ قال: يهمني أنك تأتي منزلي فلا تجد أمري كما أحب؛ لأن زوجتي مريضة، قال القرد: لا تهتم، فإن الهم لا يغني عنك شيئا، ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية، فإنه يقال: ليبذل ذو المال ماله في أربعة مواضع: في الصدقة وفي الحاجة وعلى البنين وعلى الأزواج. قال الغيلم: صدقت وقد قال الأطباء: إنه لا دواء لها إلا قلب قرد، فقال القرد: وا أسفاه، لقد أدركني الحرص والشر على كبر نفسي؛ حتى وقعت في شر ورطة،

---

[1] – كمال أبو ديب، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط01، 2007، ص08.

ولقد صدق الذي قال: يعيش القانع الراضي مستريحا مطمئنًا، وذو الحرص والشره يعيش معاش ذي تعب ونصب، وإني قد احتجت الآن إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه.

ثم قال للغيلم: وما منعك أن تعلمني عند منزلي حتى كنت أحمل قلبي معي؟ فهذه سنة فينا معاشر القردة إذا خرج أحد لزيارة صديق خلف قلبه عند أهله، أو في موضعه؛ للنظر إذا نظرنا إلى حرم المزور، وليس قلوبنا معنا، قال الغيلم: وأين قلبك الآن؟ قال: خلفته في الشجرة فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة؛ حتى آتيك به، ففرح الغيلم بذلك، وقال: لقد وافقني صاحبي بدون أن أغدر به، ثم رجع بالقرد إلى مكانه، فلما أبطأ على الغيلم ناداه: يا خليلي، احمل قلبك وانزل، فقد حبستني، فقال القرد: هيهات، أتظن أني كالحمار، الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان، قال الغيلم: وكيف ذلك؟

قال القرد: زعموا أنه أسد في أجمة وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه، فأصاب الأسد جرب وضعف شديد، فلم يستطع الصيد، فقال له ابن آوى: ما بالك يا سيد السباع قد تغيرت أحوالك؟ قال: هذا الجرب الذي أجهدني وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه، قال ابن آوى: ما أيسر هذا، وقد عرفت بمكان كذا حمار مع قصار يحمل عليه ثيابه، وأنا آتيك به، ثم دلف إلى الحمار فأتاه وسلم عليه، فقال له: ما لي أراك مهزولًا؟ قال: ما يطعمني صاحبي شيئا، فقال له: وكيف ترضى المقام معه على هذا؟ قال: فما لي حيلة في الهرب منه لست أتوجه إلى جهة، إلا أضر بي إنسان فكدني وأجاعني، قال ابن آوى: فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس لا يمر به إنسان، خصيب المرعى فيه، قطيع من الحمر لم تر عين مثلها حسنا وسمنا، قال الحمار: وما يحبسنا عنها؟ فانطلق بنا إليها.

فانطلق به ابن آوى نحو الأسد، وتقدم ابن أوى ودخل الغابة على الأسد، فأخبره بمكان الحمار فخرج إليه، وأراد أن يثب عليه فلم يستطع لضعفه، وتخلص الحمار منه، فأفلت هلعا على وجهه، فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار، قال له: أعجزت يا سيد السباع إلى هذه الغاية؟ فقال له: إن جئتني به مرة أخرى فلن ينجو مني أبدا.

فمضى ابن آوى إلى الحمار، فقال له: ما الذي جرى عليك، إن أحد الحمر رآك غريبا، فخرج يتلقاك مرحبا بك، ولو ثبت له لآنسك، ومضى بك إلى أصحابه، فلما سمع الحمار كلام ابن آوى، ولم يكن رأى أسدا قط، صدقه وأخذ طريقه إلى الأسد، وأعلمه بمكانه، وقال له: استعد له، فقد خدعته لك، فلا يدركنك الضعف في هذه النوبة، إن أفلت فلن يعود معي أبدا، فجأش جأش الأسد لتحريض ابن آوى له، وخرج إلى موضع الحمار، فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها، ثم قال: قد ذكرت الأطباء إنه لا يؤكل إلا بعد الغسل والطهور، فاحتفظ به حتى أعود، فآكل قلبه وأذنيه، وأترك ما سوى ذلك قوتا لك.

فلما ذهب الأسد؛ ليغتسل عمد ابن آوى إلى الحمار فأكل قلبه وأذنيه، رجاء أن يتطير الأسد منه فلا يأكل منه شيئا، فقال لابن آوى: أين قلب الحمار وأذناه؟ قال ابن آوى: ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به وأذنان يسمع بهما لم يرجع إليك بعدما أفلت ونجى من الهلكة؟ وإنما ضربت لك هذا المثل؛ لتعلم أني لست كذلك الحمار، الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان، ولكنك احتلت عليَّ، وخدعتني فخدعتك بمثل خديعتك، واستدركت فارط أمري، وقد قيل: إن الذي يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم.

قال الغيلم: صدقت، إلا أن الرجل الصالح يعترف بزلته، وإذ أذنب ذنبا لم يستحِ أن يؤدب لصدقه في قوله وفعله، وإن وقع في ورطة أمكنه التخلص منها بحيلته وعقله، كالرجل الذي يعثر على الأرض ثم ينهض عليها معتمدا، فهذا مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها »